حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيّ بعده.

هل خلوْت بنفسك يوماً، فحاسبتها عمّا بدر منها من الأقوال والأفعال؟ وهل حاولت يوماً أنْ تَعُدَّ سيئاتك كما تَعُدُّ حسناتك؟ بل هل تأملت يوماً طاعاتك التي تفتخر بذكرها؟

فإنْ وجدت أن كثيراً منها مشوبٌ بالرياء والسمعة وحظوظ النفس، فكيف تصبر على هذه الحال، وطريقك محفوف بالمكاره والأخطار؟! وكيف القدوم على الله، وأنت مُحمّل بالأثقال والأوزار؟

قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٨، ١٩].

وقال تعالى:

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [الزمر: ٥٤].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

(حاسبوا أنفسكم قبل أنْ تُحاسبوا، وزِنُوها قبل أنْ تُوزَنُوا، فإنّ أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيّنوا للعرض الأكبر، يومئذٍ تُعْرَضُون، لا تَخْفى منكم خافية).

عبادة وخشية

وقد مدح اللّهُ تعالى أهل طاعته، بقوله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧ـ ٦١].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن هذه الآية، فقلت: أهمُ الذين يشربون الخمر ويَزْنُون ويسرقون؟ فقال ﷺ: «لا يا ابنةَ الصِّدّيق،

ولكنهم الذين يصومون ويُصلُّون، ويتصدَّقون، ويخافون ألاَّ يُتقبَّل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات» [الترمذي وابن ماجه وأحمد].

أخي المسلم؛ هكذا كان سلفنا الكرام، يتقرَّبون إلى اللّه بالطاعات، ويسارعون إليه بأنواع القُرُبات، ويحاسبون أنفسهم على الزَّلاَّت، ثم يخافون ألاَّ يتقبلَ اللّه أعمالهم.

فهذا الصِّدِّيق رضي اللّه عنه: كان يبكي كثيراً، ويقول: ابكوا، فإنْ لم تبكوا فتباكَوْا، وقال: واللّه لوددتُ أنّي كنتُ هذه الشجرة، تُؤكَلُ وتُعضَد.

وهذا عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: قرأ سورة الطور، حتى بلغ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧]. فبكى واشتدَّ في بكائه، حتى مرض وعادوه (زاروه). وكان يمرُّ بالآية في وِرْدِه بالليل فتخيفه، فيبقى في البيت أياماً يُعاد، يحسبونه مريضاً، وكان في وجهه خطَّان أسودان من البكاء!!.

وقال له ابنُ عباس رضي اللّه عنهما: مصّر اللّه بك الأمصار، وفتح بك الفتوح وفعل، فقال عمر: وددتُ أني أنجو، لا أجر ولا وِزر!!.

وهذا عثمان بن عفان ـ ذو النورين ـ رضي اللّه عنه: كان إذا وقف على القبر بكى حتى بلّل لحيته، وقال: لو أنني بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيتهما يُؤمَر بي، لاخترتُ أنْ أكونَ رماداً، قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير!!.

وهذا علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: كان كثيرَ البكاء والخوف، والمحاسبة لنفسه. وكان يشتد خوفُه من اثنتين: طول الأمل، واتباع الهوى. قال: فأما طولُ الأمل فيُنْسي الآخرة، وأما اتباعُ الهوى فيصدُّ عن الحق.

واعظُ اللّهِ في القلب

عن النواس بن سمعان رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: «ضربَ اللّهُ مَثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جَنْبتي الصراط سُوران، فيهما أبواب مُفَتَّحة، وعلى الأبواب سُتُور مُرْخاة، وعلى الصراط داع يدعو يقول. يا أيها الناس!! اسلكوا الصراط جميعاً ولا تَعْوَجُوا، وداع يدعو على الصراط، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب، قال: ويلك! لا تفتحْهُ، فإنك إنْ تفتحْهُ تَلِجْه. فالصراط: الإسلام. والسُّتُور: حدود اللّه. والأبواب المُفتَّحة: محارم اللّه. والداعي من فوق: واعظُ اللّهِ يذكر في قلب كل مسلم» [أحمد والحاكم وصححه الألباني].

فهلاَّ استجبت ـ أخي المسلم ـ لواعظ اللّه في قلبك؟ وهلاَّ حفظتَ حدود اللّه ومحارمه؟ وهلاَّ انتصرتَ على عدوّ اللّه وعدوّك، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

عن خالد بن معدان رضي الله عنه قال: ما مِنْ عبد إلا ولَهُ عينانِ في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد اللّهُ بعبد خيراً، فتح عينيه اللتين في قلبه، فأبصر بهما ما وعد الله بالغيب، وإذا أراد به غير ذلك، تركه على ما فيه، ثم قرأ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

أقوال في محاسبة النفس

١ ـ كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى بعض عماله: (حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإن مَنْ حاسبَ نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة، عاد أمره إلى الرِّضا والغِبْطة، ومن ألْهَتْهُ حياته، وشغلتْه أهواؤه عاد أمره إلى الندامة والخسارة).

٢ ـ وقال الحسن البصري: لا تَلْقى المؤمن إلا يحاسب نفسه: ماذا أردتِ تعملين؟ وماذا أردتِ تأكلين؟ وماذا أردتِ تشربين؟ والفاجر يمضي قُدُماً لا يحاسب نفسه.

٣ ـ وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، أضاع نفسه وغَبْنها، مع ذلك تراه حافظاً لماله، مُضيِّعاً لدينه.

٤ ـ وقال الحسن: إن العبد لا يزالُ بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة همَّته.

٥ ـ وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبدُ تقياً حتى يكون لنفسه أشدّ محاسبةً من الشريك لشريكه، ولهذا قيل: النفسُ كالشريك الخوَّان، إنْ لم تحاسبه ذهب بمالك.

٦ ـ وذكر الإمام أحمد عن وهب بن منبه قال: مكتوبٌ في حكمة آل داود: حقٌّ على العاقل ألاّ يغفل عن أربع ساعات: ساعة يُناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويَصْدُقونه عن نفسه، وساعة يُخْلي فيها بين نفسه وبين لذّاتها فيما يحل ويجمُل، فإن في هذه الساعة عَوْناً على تلك الساعات، وإجماماً للقلوب.

٧ ـ وكان الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح، فيضع إصبعه فيه، ثم يقول: حس يا حنيف، ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعتَ يوم كذا؟

٨ ـ وقال الحسن: المؤمن قوَّام على نفسه، يحاسب نفسه لله، وإنما خَفَّ الحسابُ

يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شَقَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة.

إن المؤمن يفجؤه الشيء ويعجبه، فيقول: واللّه إني لأشتهيكَ، وإنك لمن حاجتي، ولكن واللّه ما من صِلَة إليك، هيهات هيهات، حِيلَ بيني وبينك. ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول: ما أردتُ إلى هذا؟ ما لي ولهذا؟ واللّه لا أعود إلى هذا أبداً.

إن المؤمنين قومٌ أوقفهم القرآن، وحالَ بينهم وبين هَلكتهم.

إن المؤمنَ أسيرٌ في الدنيا يسعى في فِكَاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يَلقى اللّه، يعلم أنه مأخوذٌ عليه في سمعه وفي بصره، وفي لسانه وفي جوارحه، مأخوذٌ عليه في ذلك كله.

٩ ـ وقال مالك بن دينار: رحم اللّهُ عبداً قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ألزمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب اللّه عزّ وجلّ، فكان لها قائداً.

١٠ ـ وقال ابن أبي مليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاقَ على نفسه، ما منهم أحدٌ يقول إنه على إيمان جبريل وميكائيل!!.

قال الإمام ابن الجوزي: أعجبُ العُجاب أن النقاد يخافون دخول البهرج في أموالهم، والمبهرج آمن!! هذا الصديق يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد، وهذا عمر يقول: يا حذيفة، هل أنا منهم ـ يعني من المنافقين ـ والمخلّط على بساط الأمن!!.

وقال الإمام ابن القيم رحمه اللّه: (ومن تأمل أحوال الصحابة رضي اللّه عنهم وجدهم في غاية العمل مع غاية الخوف، ونحن جمعنا بين التقصير، بل التفريط والأمن).

هكذا يقول الإمام ابن القيم رحمه اللّه عن نفسه وعصره، فماذا نقول نحن عن أنفسنا وعصرنا؟!.

فلا تضيع أيامك، فإنها رأسُ مالك، فإنك ما دُمْتَ قادراً على رأس مالك قدرتَ على الربح، وإن بضاعة الآخرة كاسدة في يومك هذا، فاجتهد حتى تجمعَ بضاعة الآخرة في وقت الكساد، فإنه يجيء يومٌ تصير هذه البضاعة فيه عزيزة، فاستكثرْ منها في يوم الكساد ليوم العِزّ، فإنك لا تقدرُ على طلبها في ذلك اليوم.

أقْسَامُ مُحَاسَبَةِ النَّفْس

محاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

النوع الأول: محاسبة النفس قبل العمل، فهو أنْ يقف العبدُ عند أول همِّه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبينَ له رجحانه على تركه ـ قال الحسن رحمه الله: رحم اللهُ عبداً وقف عند همِّه، فإنْ كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل. وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبة النفس على طاعة قصَّرتْ فيها في حقِّ الله تعالى، فلم تُوقعها على الوجه الذي ينبغي.

وحقُّ الله تعالى في الطاعة ستةُ أمور، وهي:

١ ـ الإخلاص في العمل.

٢ ـ النصيحة لله فيه.

٣ ـ متابعة الرسول ﷺ فيه.

٤ ـ شهود مشهد الإحسان فيه.

٥ ـ شهود منَّة الله عليه فيه.

٦ ـ شهود تقصيره فيه.

فيحاسب العبد نفسه.. هل وَفَّى هذه المقامات حقَّها؟ وهل أتى بها جميعاً في هذه الطاعة؟

الثاني: أنْ يحاسب نفسه على كل عمل كان تَرْكُه خيراً من فعله.

الثالث: أنْ يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد، لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدارَ الآخرة، فيكون رابحاً؟ أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربحَ، ويفوته الظفرُ به.

الأسباب المعينة على محاسبة النفس

هناك أسباب تُعين الإنسان على محاسبة نفسه، وتُسهّل عليه ذلك منها:

١ ـ معرفته أنه كلما اجتهد في محاسبة نفسه اليوم استراح من ذلك غداً، وكلما أهملها اليوم اشتدَّ عليه الحسابُ غداً.

٢ ـ معرفته أن ربح محاسبة النفس ومراقبتها هو سُكْنَى الفردوس، والنظر إلى وجه الربِّ سبحانه، ومجاورة الأنبياء والصالحين وأهل الفضل.

٣ ـ النظر فيما يؤول إليه تركُ محاسبة النفس من الهلاك والدمار، ودخول النار

والحجاب عن الربّ تعالى ومجاورة أهل الكفر والضلال والخبث.

٤ ـ صُحْبة الأخيار الذين يحاسبون أنفسهم، ويُطلعونه على عيوب نفسه، وترك صُحْبة مَنْ عداهم.

٥ ـ النظر في أخبار أهل المحاسبة والمراقبة من سلفنا الصالح.

٦ ـ زيارة القبور والتأمُّل في أحوال الموتى الذين لا يستطيعون محاسبة أنفسهم، أو دَرْك ما فاتهم.

٧ ـ حضور مجالس العلم والوعظ والتذكير، فإنها تدعو إلى محاسبة النفس.

٨ ـ قيام الليل وقراءة القرآن، والتقرُّب إلى الله تعالى بأنواع الطاعات.

٩ ـ البُعْد عن أماكن اللهو والغفلة، فإنها تُنْسي الإنسانَ محاسبة نفسه.

١٠ ـ ذِكْر الله تعالى ودعاؤه بأنْ يجعله من أهل المحاسبة والمراقبة، وأنْ يُوفِّقه لكل خير.

١١ ـ سوء الظن بالنفس، فإن حُسْن الظن بالنفس يُنْسي محاسبة النفس، وربما رأى الإنسانُ ـ بسبب حُسْن ظنه بنفسه ـ عيوبه ومساوئه كمالاً.

حَقَّ على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر ألاَّ يغفلَ عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطواتها وخطراتها، فكلُّ نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، يمكن أنْ يُشترى بها كنزٌ من الكنوز، لا يتناهى نعيمه أبدَ الآباد.

فإضاعةُ هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها ما يجلب هلاكه خسرانٌ عظيم، لا يسمح بمثله إلا أجهلُ الناسِ وأحمقُهم وأقلُّهم عقلاً، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وكان توبةُ بن الصُّمة من المحاسبين لأنفسهم، فحسبَ يوماً، فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال: يا ويلتي! ألقى ربي بأحد وعشرين ألف ذنب؟ كيف وفي كل يوم آلاف من الذنوب؟ ثم خرَّ مَغْشياً عليه فإذا هو ميتٌ، فسمعوا قائلاً يقول: (ما لك ركضة إلى الفردوس الأعلى).

كيفية محاسبة النفس

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أن محاسبة النفس تكون كالتالي:

أولاً: البدء بالفرائض، فإذا رأى فيها نقصاً تداركه.

ثانياً: ثم المناهي، فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.

ثالثاً: محاسبة النفس على الغفلة، ويتدارك ذلك بالذِّكر والإقبال على الله.

رابعاً: محاسبة النفس على حركات الجوارح، وكلام اللسان، ومَشْي الرِّجْلين، وبَطْش اليدين، ونظر العينين، وسماع الأذنين، ماذا أردتِ بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أيِّ وجه فعلته.

فوائد محاسبة النفس

ولمحاسبة النفس فوائد جمّة منها:

١ ـ الاطلاع على عيوب النفس، ومَنْ لم يطلع على عَيْب نفسه لم يمكنه إزالته.

٢ ـ التوبة والندم، وتدارُك ما فاتَ في زمن الإمكان.

٣ ـ معرفة حقّ الله تعالى، فإن أصلَ محاسبة النفس هو محاسبتها على تفريطها في حَقّ الله تعالى.

٤ ـ انكسار العبد وذِلّته بين يدي ربه تبارك وتعالى.

٥ ـ معرفة كرم الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعَفْوه ورحمته بعباده، في أنه لم يعجل عقوبتهم مع ما هم عليه من المعاصي والمخالفات.

٦ ـ مَقْت النفس والإزراء عليها، والتخلُّص من العجب ورؤية العمل.

٧ ـ الاجتهاد في الطاعة وتَرْك العصيان، لتسهل عليه المحاسبة فيما بعد.

٨ ـ ردّ الحقوق إلى أهلها، وسَلّ السَّخائم، وحُسْن الخلق، وهذه من أعظم ثمرات محاسبة النفس.

قطار العمر

قال الفضيل بن عياض لرجل: كم أتى عليك؟ قال: ستون سنة. قال له: أنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أنْ تصل!!.

وقال أبو الدرداء: إنما أنت أيام، كلما مضى منكَ يومٌ مضى بعضُك.

فيا أبناء العشرين! كم مات من أقرانكم وتخلَّفتم؟!.

ويا أبناء الثلاثين! أصبتُم بالشباب على قُرْب من العهد، فما تأسفتم؟

ويا أبناء الأربعين! ذهب الصِّبا وأنتم على اللهو قد عكفتم!!.

ويا أبناء الخمسين! تنصفتم المئة وما أنصفتم!!.

ويا أبناء الستين! أنتم على مُعترك المنايا قد أشرفتُم، أتلهون وتلعبون؟ لقد أسرفتم!!.

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى مَنْ بلغَ ستين سنة».

أخي الحبيب:

كم صلاة أضعتها؟

كم جمعة تهاونتَ بها؟

كم صيام تركتَه؟

كم زكاة بخلتَ بها؟

كم حج فوّته؟

كم معروف تكاسلت عنه؟

كم مُنكر سكتَّ عليه؟

كم نظرة محرمة أصبْتَها؟

كم كلمة فاحشة تكلّمتَ بها؟

كم أغضبتَ والديْكَ ولم تُرضِهما؟

كم قسوتَ على ضعيف ولم ترحمه؟

كم من الناس ظلمته؟

كم من الناس أخذتَ ماله؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون مَنِ المفلس؟ قالوا: المفلس فينا مَنْ لا درهمَ له ولا متاع؟ فقال: «إن المفلسَ من أمتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإنْ فَنيتْ حسناته قبل أنْ يقضي ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار» [أخرجه مسلم].

إنّا لَنَفْرَحُ بالأيّام نَقْطَعُهَا ... فَاعْمَلْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ المَوْت مُجْتَهِدَاً

وَكُلُّ يَوْم مَضَى يُدْنِي مِنَ الأجَل ... فَإنَّمَا الرِّبْحُ وَالخُسْرَانُ في العَمَل

وصلّى الله وسلّم، وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصَحْبه وسَلّم.

شهادة أعضاء جسم الإنسان على نفسه

يوجد لكل مخلوق حياة في هذا الكون، حياة قد تجهلها، وحياة قد تعرف منها أشياء، وتجهل أشياء، وحياة قد تعرفها كلها، لكن لكل ما خلق الله في هذا الكون حياةً تناسب مهمته على الأرض.

إذن: بما أنك وصلت إلى هذه النتيجة، فلا تستغرب قَوْلَ الله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢٠، ٢١].

لأن الجلود هي من خَلْق الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولها لغة تُسبِّح بها، ولكن لا نفهمها ولا نسمعها، وكذلك العين والأذن والأنف، وكل خلية من خلايا الجسم هي مسبِّحة لله طائعة له، ولكنها مُسَخَّرة لنا، فاليد مسخرة في أن تطيعني أن أساعد بها مسكيناً، أو رجلاً أعمى، وأن أبطش بها بالضعيف.

واللسان في الحياة الدنيا مُسخَّر لي، أستطيع أن أقولَ به الحق، وأن أقول به الكذب، وأنطق بكلمة الإيمان أو كلمة الكفر، وهو في هذا يُطيعني، وفي هذا يطيعني.

وكذلك كل أعضاء الجسد، فإذا جاءت الآخرة انتهى هذا التسخير وزال، وأصبح اللسان الذي كان مُسخَّراً لخدمتي في الحياة الدنيا بأمر الله، خارجاً عن أن يكون مُسخَّراً لي ويشهد عليَّ، وكذلك العين، وكذلك الجلد، إلى آخره.

وحينئذٍ تقف كل هذه الأعضاء لتشهد عليَّ بالحق، بما فعلتُ في الدنيا من معاصٍ، وحينئذٍ يجعلنا نفهم لغتها، وهي تنطق وتقول: الله أنطق كل شيْءٍ وهو أعلم بلغة الأجناس كلها ويستطيع أن يعطي، وأن يهب ما يشاء لمن يشاء.

ولقد خصَّ أنبياءه في الدنيا بنفحاتٍ من هذا العلم، فأعطى سليمان مُلْكاً لم يُعْطِهِ لأحد بعده، وعلَّمه منطق الطير، وآتاه من كل شيء، وكذلك داود، وكذلك كل مَن ارتضى الله من عباده، يعلمه من لَدُنه علماً، فيفقه ويفهم ويرى ويسمع، ما لا نفهمه، وما لا نراه، ولا نسمعه ولا نفهمه، تلك عظمة الله، وتلك حكمة الله.

كيفَ يُعذِّبُ اللّهُ الجلدَ والعينَ واللسانَ؟

وهنا نقطتان:

النقطة الأولى: كيف سيعذب اللّهُ الجلود والأعين والألسنة، وهي عابدة للّه مُسبِّحة له، وذلك مصداق لقوله سبحانه وتعالى:

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

نقول: إن هذه الأعضاء كلها ستكون سعيدة، وهي تحرق العاصي للّه، الكافر به، كما ستكون الحجارةُ سعيدة، وهي مشتعلة بالنار لتحرق أولئك الذين عبدوها وكفروا باللّه، كل هذه الأشياء المطيعة للّه، والتي ستُستخدم في إذاقة العذاب للنفس البشرية ستكون سعيدة، لأنها تُذيق العذاب لعاصٍ كفر بنعمة اللّه.

النقطة الثانية: هي قول اللّه سبحانه وتعالى:

﴿۞ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

ولقد حاول العلماء أن يصلوا إلى معنى الحي ومعنى الميت، وما دام كل شيء حياً، فكيف يخلق اللّه الحيّ من الميت.

نقول: إن الحياة في خَلْق اللّه هي أن يؤدي الموجودُ مهمته، أي: أن كلّ شيء حَيّ له مهمة في الحياة، فإذا انتهتْ هذه المهمة خرج من مفهوم الحياة الدنيوية وأصبح ميتاً؛ ولذلك فإن الشجرة مثلاً إذا أعطتْ كل ما فيها من ثمار تموت بعد ذلك، وتخرج من الحياة لأنها أدّتْ مهمتها.

وكذلك الإنسان عندما تنتهي مهمته في الحياة، ويمر بفترة الاختبار التي قدّرها اللّه له، ويُمتحن ويُختبر مرة ومرات، وتنتهي حياته بعد أن انتهت المهمة التي جاء من أجلها للحياة، وهي فترة الاختبار التي مرَّ بها.

وكذلك الحيوان والنبات والجماد، فاللّه تعالى أعطى الإنسانَ حياةَ حسٍّ وحركة في الدنيا، ثم أعطاه حياة أخرى في الآخرة يُصعِّد بها حياته في الدنيا ويجعل لها قيمةً، فالنِّعَم في الدنيا للمؤمن والكافر، ولكنها في الآخرة للمؤمن وحده.

هنا نتوقف عند قوله تعالى:

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥].

فما دام كل شيء في الدنيا فيه حياة، فأين هو الميت الذي ستخرج منه الحياة؟

والحياة عرفنا أنها في الإنسان والحيوان والنبات والجماد، فإذا كان كلُّ ما في الكون حياً، فأين هو الميت؟

وقبل أن نبدأ الإجابة عن هذا السؤال ـ ونحن نعرف أن من أسماء الله الحسنى (المحيي والمميت) ـ لا بُدَّ أن نوضحَ أن أسماء الله ـ سبحانه وتعالى ـ تدل على الثبوت وعلى الحدوث معاً، فالحق تبارك وتعالى له صفة في ذاته، وصفة في متعلقات هذه الذات.

فإذا قلنا: إن الله هو الرزّاق، فهذه صفة للحق ـ تبارك وتعالى ـ قبل أن يكون هناك مخلوقٌ يرزقه الله.. والله ـ سبحانه وتعالى ـ رزّاق قبل أن يخلق مَن يحتاج إلى الرزق، ولو أنه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يكُن رزّاقاً قبل أن يوجد مَن يرزقه، فكيف يستطيع أن يرزقَ خَلْقه لحظة وجودهم؟

وإذا لم يكن ـ سبحانه وتعالى ـ هو الخالق قبل أن يبدأ الخلق، فبأيّ صفة يتم هذا الخلق ويبدأه؟ لا بد أن توجد الصفة أولاً، قبل أن يوجد الفعل.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ خالقٌ قبل أن يخلق أحداً، والخَلْق بدأ أولاً بوجود صفة الخالق في حق الله تبارك وتعالى، حتى قبل أن يوجد مخلوق واحد. إذن: فالخلق صفة لذات الله موجودة قبل أن توجدَ أفعال هذه الصفة، والله محيي قبل أن توجد الحياة، ومميت قبل أنْ يوجد الموت.

إذن: فالصفة موجودة في الذات، فالله قبل أنْ يخلقَ كان خالقاً، وقبل أن يقدر كان قادراً، وقبل أن يحيي ويميت كان محيياً ومميتاً.

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الأنعام: ٩٥].

قبل أن تكون هناك حياةٌ ووجود.

وإذا أخذنا قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ بالمعنى السطحي، فنحن لا نرى في أشياء كثيرة حياة الحسّ والحركة كما نفهمها، وعدد كبير من الحيوانات التي تبيض ولا تلد لا نرى في بيضها حياة، ومع ذلك يخرج الصغار من هذا البيض، والمرأة قد تلد طفلاً ميتاً، والبيض قد لا تخرج منه حياة.

ولكن إذا أردنا أن نتعمق، فإننا يجب أن نأخذ المعنى على أنه كما أن الحياة خَلْق، فالموت أيضاً خَلْق، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: ٢].

إذن: فالحياة خَلْق، والموت خَلْق.

ونلاحظ أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد ذكر الموت قبل الحياة، فقال:

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

فإذا كنا نعيش في هذه الدنيا خَلْقَ الحياة، فإننا نعيشُ خَلْق الموت عندما نغادر هذه الحياة، وكل خَلْق له قوانينه، وله عالمه، وله وجوده الذي لا نُحِسُّ به، وما دامتْ الحياةُ والموت خَلْقاً، واللّه ـ سبحانه وتعالى ـ وحده هو الخالق، فكل شيء يأتي إلى الحياة وهو من اللّه، وكل شيء يذهب عن هذه الحياة فهو إلى اللّه، وانتقال الشيء من عالم الحياة إلى عالم الموت هو ما يُطلق عليه اللّه ـ سبحانه وتعالى: ﴿ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ ﴾.

فنحن قبل أن نأتي إلى هذه الدنيا كنا مخلوقين، ولكن كنا أمواتاً لم تكُن لنا حياة في هذا العالم، ثم جئنا إلى هذا العالم فأصبحت لنا حياة، ثم نغادر هذا العالم فنصبح أمواتاً، ثم نعود مرة أخرى إلى عالم الحياة الأبدية.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨].

أي: أننا كنا أمواتاً قبل أن نأتي إلى هذه الحياة الدنيا، ثم انتقلنا من عالم الموت إلى عالم الحياة في الدنيا، ثم ننتقل مرة أخرى إلى عالم الحياة لنُحاسَب يوم القيامة، ثم نعود إلى اللّه، إما أن يُعذبنا، وإما أن يُنعِمنا.

فكأننا ونحن أحياء في عالم الذرّ كنا أمواتاً في عالم الدنيا.

وعندما انتقلنا من عالم الذّرّ إلى عالم الحياة الدنيا أصبحنا أحياء، ثم نغادر الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ، لنعود مرة أخرى أمواتاً في عالم الدنيا، ثم نُبعث ونُخْرَج أحياءً من نفس الأرض، ثم هناك الحساب والخلود.

وعندما يأتي الخلود لا يكون هناك موتٌ، أي: أن عالم الموت ينتهي يوم القيامة بالنسبة للمؤمن والكافر، ولكن يكون هناك خلود: خلود في النعيم، أو خلود في العذاب. ولكن عالم الموت ينتهي.

إذن: فعالم الموت موجود حتى يوم القيامة ثم ينتهي، أما عالم الحياة فموجود كخلود بعد يوم القيامة، بهذا تكون قد عرفنا أن الحياة هي خروج من عالم خَلقه اللّهُ، له قوانينه، إلى عالم الحياة الدنيا الذي له قوانينُ مختلفة تماماً.

والموت هو خروج من عالم الدنيا إلى عالم آخر من خَلْق اللّه، فكأن اللّه

سبحانه وتعالى هو القادر وحده أنْ يُخرجَ مخلوقاته من عالم الموت إلى عالم الحياة الدنيا، ويخرجها من عالم الحياة الدنيا إلى عالم الموت، ولا قدرةَ لأحد.

تأمّل دقّة القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الأنعام: ٩٥].

أي: أن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي يأتي بكل شيء إلى عالم الحياة، دون أن يكتب على نفسه شيئاً، فهو يُخرج مَنْ يشاء من عالم الموت إلى عالم الحياة، ولكن متى جاء الإنسان إلى عالم الحياة ثم مات، فإن اللّه لا بدّ أن يخرجه يوم القيامة من عالم الموت إلى عالم الحياة. أي: لا بدَّ أن يبعثه.

فقبل المجيء إلى الدنيا لم يكتب اللّهُ على نفسه شيئاً، ولكن اللّه سبحانه وتعالى كتب على نفسه أن كلَّ مَنْ يأتي إلى الدنيا لا بدّ أن يُبعثَ يوم القيامة، وَعْداً عليه حقاً، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٧].

فكلّ مَنْ جاء من عالم الذَّرّ إلى عالم الحياة الدنيا انتقل إلى عالم الموت لا بُدَّ مبعوثٌ يوم القيامة؛ لذلك اختلف التعبير، فقال الحق سبحانه:

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ [الأنعام: ٩٥].

هذه هي الحياة بمفهومها العميق، وهذا هو خَلْق الحياة وخَلْق الموت، ولا بُدَّ لنا أن نتحدث عن مشاهد يوم القيامة، وقبلها لا بد أنْ نتحدث عن معنى الساعة، وعلاماتها.

مَعنى السَّاعةِ

قبل أن نبدأ الحديث عن أحداث يوم القيامة، فإنه لا بدّ من حديث عن معنى الساعة، ذلك أن بعض الناس يشغلون أنفسهم بأشياء كثيرة عن موعد قيام الساعة، ومتى تقع، إلى آخر ما نسمعه من أسئلة بين عدد من الناس، ومن تنبؤات بين عدد من العلماء.

بعضهم يقول: إن الأرض ستبتعد عن الشمس فيتجمّد كل شيء. والبعض الآخر يقول: إن الأرض ستقترب من الشمس، فيحترق فيها كلّ شيء.

والبعض الثالث يقول: إن الأوكسجين سيقل من الأرض لتصبح غير صالحة للحياة.

كل هذه وغيرها تنبؤات تقوم على الظن، وليس على اليقين.. فحتى الآن لا أحد يعرف يقيناً ماذا سيحدث، ولا متى سيحدث. نقول لهؤلاء جميعاً: لقد شغلتم أنفسكم بعلم لا ينفع، وجهل لا يضر، ذلك أنه مهما كان عمر الأرض ملايين السنين فأنا لا يعنيني منها إلا فترة بسيطة جداً، هي فترة عمري.

فقبل أنْ أُولدَ لا علاقةَ لي بالحياة على الأرض. إذن: فموعد القيامة بالنسبة لي هو موعد انتهاء حياتي على الأرض، فمَنْ مات قامتْ قيامته.. لماذا؟ لأنه يرى كل شيء، يرى ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ويرى أشياء كثيرة لم يكُنْ يراها في الدنيا، وبالنسبة له تنتهي فترة الاختبار التي هي المدخل إلى يوم القيامة.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾ [الممتحنة: ١٣].

لماذا قال الحق سبحانه: ﴿ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴾.

لأن الذي يموت كافراً يعلم يقيناً أن لا أملَ له إلا العذاب في الآخرة، ولأنه رأى فهو يعرف أن لا أملَ له في دخول الجنة، وأن لا أملَ له في النجاة من النار، وهذا اليأس يصبح يأساً يقينياً.

فالإنسان يعرف مصيره ساعة يُحتضر، تلك اللحظات التي بين الموت والحياة

فيشاهد فيها الإنسان كل ما أُخفي عنه، تلك الساعة التي تغادر فيها الروحُ الجسدَ أو سَكْرة الموت كما يسميها الله سبحانه وتعالى.

تلك اللحظات التي تخمد فيها بشرية الإنسان، وتنتهي فيها حياة الاستعلاء وحياة الكِبْر، وكل مظاهر الحياة الدنيوية بكل ما فيها ومَن فيها.

وإذا أردتَ أنْ تشهدَ ذلك، فانظر إلى إنسان قد تجبَّر وعلا، وأعطاه الله أسباب الملْك في الدنيا، تجده ساعة الاحتضار ضعيفاً ذليلاً عاجزاً، كل مظاهر الاستعلاء ذهبتْ، ينظر إليك في مَسْكنة غريبة، ويحاول أنْ يستنجدَ بكلِّ مَن حوله، ولكن الكل عاجزون.

في هذه اللحظة، يأخذ الإنسانُ مقدمات الغيب، ويرى ما أخبره الله سبحانه وتعالى عنه، ولم يكن يُصدِّقه، ذلك لأن بشريته الآن قد خمدت، وما دامت البشرية قد خمدت تهبُّ نفحات الغيب.

وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

أي: ما كنت تظن أنه لن يقع، أو تحاول ألا تتذكَّره، وألاَّ تعترف به، وكنت تظن أن هذه اللحظة لن تأتي، فإذا أتتْ فأنت تتوهم أن شيئاً لن يحدث فيها، في هذه اللحظات بالذات لا تنفع التوبة، ولا يُجْدي الاستغفار، فمع سَكْرة الموت ينقطع عملُ الإنسان الدنيوي، وتأتي الساعة التي ينتقل فيها كلٌ منا إلى عالم البرزخ لينتظر الحساب.

وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥].

أي: أن الإنسان وهو يحتضر يكون أقرب إلى ملكوت الله من أولئك الذين يقفون حوله ساعةَ الاحتضار، ومع أن أهلَ المحتضَر يحيطون به إحاطة لصيقة عن قُرْب في هذه الساعة العصيبة، فإن ملكوتَ الله يكون أقربَ منهم إليه، وتحيط بالإنسان في هذه الحالة: إما ملائكة الرحمة إذا كان صالحاً، أو زبانية جهنم ـ والعياذ بالله ـ إذا كان فاسقاً.

رؤية الظالم للملائكة عند الاحتضار

على أننا لا بُدَّ أن نتوقفَ عند قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ

تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

نتوقف عند قول الحقّ سبحانه: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، والنفس ـ كما قلنا ـ هي التقاء الروح بالجسد، فكيف يطلب الملائكةُ من الظالم أن يُخرج نفسه؟

لكي نفهم هذه الآية لا بدّ أن نضع في أذهاننا أن هذا المحتضَر كان كافراً بالله ومُكذِّباً للبعث، وحينئذٍ إذا جاءت ساعة الاحتضار يكون حوله ملائكة العذاب أو زبانية جهنم.

يقولون له: هأنتذا ترى الآن ما كنتَ تُكذِّب به، وترى العذاب الذي ينتظرك فإنْ كانت لك قوةٌ أو قدرةٌ كما كنتَ تدَّعي في الحياة الدنيا فأخرج نفسك مما ينتظرك، اهرب من العذاب الشديد الذي سوف تلاقيه، أرِنا أين ستذهب.

لقد كانت لك قدرة في الحياة الدنيا، قدرة من الله، ولكنك بدلاً من أن تستخدمها في شكر الله، انطلقتَ تقول على الله غيرَ الحقّ، وتستكبر في الأرض، وتبارز الله بالمعاصي، ولكنك الآن لا تملك شيئاً لنفسك، ولا تملك أن تستجير بأنصارك، فأنت ترى العذاب وهو واقع بك، ولن تفلت منه.

رؤية المؤمن لملائكة الرحمة

المؤمن يرى الملائكة أيضاً، ولكنه يرى ملائكة الرحمة الذين يُبشِّرونه بالجنة، ويستقبلونه بالسلام، ويكون فرِحاً مُستبشراً، فالإنسان حين يحتضر تكون قيامته قد قامت، ولا علاقةَ له بالأيام والأحداث القادمة إلى الدنيا، فهو قد انتهى دوره عند هذه اللحظة، وانتهت مهمته في الحياة، وانتقل إلى عالم القيامة، عالم الحساب لينتظر يوم تقوم الساعة.

ولذلك، فإننا نقول لكل مَنْ يجهدون أنفسهم في أشياء هي من علم الغيب، ولم يصلوا إليها يقيناً. نقول لهم: لا تُجهدوا أنفسكم في أشياء هي من علم الغيب، ولم تصلوا إليها يقيناً، فما دام الله قد أخفى وجعل الساعة عنده، فلا أحد يعلمها سواه، وحتى لو علمتها فماذا ستستفيد منها، لنفرض أنني علمت أن الساعة ستقومُ بعد ألف سنة.. فماذا سيفيدني ذلك؟

هل سأعيش ألفَ عام أتأثر بأحداث الأرض والحياة وتتأثر بي؟ أم أن المسألة ستنتهي بعد سنوات، طالتْ أم قصُرتْ، حتى لو قلت للناس: إن القيامة ستقوم بعد ألف سنة، فماذا يستفيدون؟ معظمهم سيقابل هذا الكلام بالسخرية وعدم التقدير. وآخرون سيقولون: ما لنا نحن وما سيحدث بعد هذه الفترة الطويلة؟

لو عرفنا موعد الساعة ما كان ذلك ليفيدنا على المدى الطويل، فإذا نظرنا إليها

على المدى القصير، وتصديقاً لقول النبي ﷺ: «مَن مات قامتْ قيامته»، إذا نظرنا إليها من هذه الزاوية، وهي أن القيامة الصغرى عندما يموت الإنسان، والقيامة الكبرى في آخر الزمان.. نجد أيضاً أن الأجل قد أُخْفِيَ عنا.. لماذا؟

لنتوقع الموت في كل لحظة ودقيقة، فيسارع كل منا إلى الخير قدر إمكانه ويبتعد عن الشر قدر استطاعته، ولو أن الأجل محدد معلوم لأثر ذلك على استمرارية الخير في الكون، ولزاد من استمرارية الشر.

فإذا علمتُ أن أجَلي مثلاً خمس وستون سنة، فإنني أظلُّ أتبع أهوائي وشهواتي إلى سِنِّ الستين، ثم أتوب بعد ذلك، وبذلك نكون قد أعطينا استمراريةً للشر في الكون، وبخاصة أن ذلك سينطبق على معظم الناس.

وفي نفس الوقت، فإن كلًّا منا إذا عرف أجله أجَّل الخيرَ إلى السنوات الأخيرة من عمره، فنكون بذلك قد قطعنا استمرار الخير، ولكن حتى يستمر الخير في الكون، ويسارع كل منا إليه، فإن الأجل المخفي هو السبيل.

على أنه حتى لو قلت لإنسان: إن عمرك سينتهي بعد عام أو عامين، أو شهر أو شهرين، فإنه لا يُصدقك، وسيظل يراوده الأمل في أنه سيعيش أكثر، ولا يحس الإنسان بيقين الموت إلا ساعة الاحتضار، ففي هذه الساعة يعرف الإنسان يقيناً أنه سيموت، ولكن حتى قبلها بساعات، ومهما اشتد المرض عليه فإن الأمل يظل يراوده في أنه سيشفى ويعيش.

إذن: فالبحث عن موعد الساعة، سواء كان نهايةً للأجل أو نهاية للكون، لا بدَّ أن نتركه لأننا لن نصل فيه إلى شيء، وعندما ينتقل الإنسان من حياة الدنيا إلى حياة البرزخ، فإنه ينتقل من حياة لها قوانينها إلى حياة أخرى لها قوانينها المختلفة.

والله سبحانه وتعالى أراد أن يُقرِّب ذلك إلى أذهاننا، فأعطانا قانونين مختلفين في حياتنا، هما: قانون اليقظة، وقانون النوم، فالإنسان وهو مستيقظ يحس بالأحداث، يؤثر فيها ويتأثر بها، ويحس بالزمن، ويرى بعينيه، ويمشي بقدميه، إلى آخر ما نعرفه عن حياة اليقظة.

فإذا رأى نفسه يمشي وهو نائم، قدماه لم تتحركا من فوق السرير، ويرى وعيناه مُغْلقتان، ويتحدث مع مَن انتقلوا إلى الحياة الآخرة، ويرى أشياء عجيبة تحدث له وأماكن غريبة يذهب إليها، كيف يتم ذلك وهو مُلْقىً على السرير بلا حراك، عيناه مُغمضتان لا يدري بما يحدث حوله، غائب عن الزمن.

نقول: لأن هناك قانوناً للنوم يختلف تماماً عن قانون اليقظة، فهناك بصر يرى

بخلاف العينين، وحركة تتم دون تحرّك الجسد، وأشياء تحدث لا تخضع لقوانين الجسد البشري، ولا يعرف العلمُ عنها شيئاً.

فإذا حُدِّثنا عن أن هناك قوانينَ بعد الموت مختلفةً تماماً عن قوانين الحياة في الدنيا، فلنأخذ من الاختلاف بين قانُونَيْ اليقظة والنوم ما يُقرِّب هذه الصورة لأذهاننا، وحينئذٍ تستطيع عقولنا أن تفهم.

لقد قستْ القلوبُ فهي ما بين شواغل الدنيا وصوارفها وملهياتها.. ثم إذا أفاقتْ فإذا هي تفيق إلى نكبات وهموم وغموم تتجاذبها، فإذا حديث الرقائق والغائب، إذا الحديث المخوّف، والحديث المرقّق غريبٌ عن القلوب، غريب على الآذان، قَلَّ ما تنصتُ إليه، وقَلَّ ما تسمعه.

كما كان رسول الله ﷺ يتعاهد أصحابه بمواعظ تَوْجَلُ منها القلوب، وتذرف منها العيون، وترتعد منها الفرائص.

يقف رسول الله ﷺ يخطبُ أصحابه بكلمات قليلات يسيرات مباركات، فيقول لهم: «أيها الناس أُريتُ الجنةَ والنار، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتُم كثيراً، ولخرجتم الصُّعُدات تجأرون إلى الله».

فما أن يتتامّ هذا الكلامُ من رسول الله ﷺ حتى يخفض الصحابةُ رؤوسهم، ويكبوا بوجوههم ولهم ضجيج وخنينٌ بالبكاء.

وقد حذّر المولى جلَّ وعلا وأنذر عباده أشد التحذير، وأنذرهم غاية الإنذار من عذاب النار، ومن دار الخزي والبوار، فقال المولى جلَّ جلاله، وتقدّستْ أسماؤه:

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤].

وقال: ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٣٥، ٣٦].

فوالله ما أنذر العباد وخوّفهم بشيء قط هو أشد وأدْهى من النار، فوصف لهم حرّها ولَظَاها، ووصف لهم طعامها وشرابها، ووصف أغلالها ونَكَالها، ووصف حميمها وغسّاقها، ووصف أصفادها وسرابيلها.

وصف ذلك كله، حتى إن مَنْ يقرأ القرآن بقلب حاضر، ويسمع وصف جهنم، فكأنما أُقيمَ على شفيرها، فهو يراها يحطم بعضها بعضاً، كأنما يرى أهلَ النار يتقلّبون في دَرَكاتها، ويُجرْجَرون في أوديتها.. كل ذلك من المولى جلَّ وعَلا إنذارٌ وتحذيرٌ.

وكذا خوَّف نبينا ﷺ من النار، وحذَّر وأنذر، وتوعَّد وحذَّر، وكان ﷺ شديدَ الإنذار، شديدَ التحذير من النار، فقد وقف ﷺ على منبره، فجعل ينادي ويقول: «أنذرتكم النارَ، أنذرتكم النارَ، أنذرتكم النارَ». وعلا صوتُه ﷺ، حتى سمعه أهل السوق جميعاً، وحتى وقعت خميصة كانت على كتفيه ﷺ فوقعت عند رِجْلَيْهِ من شدة تأثره وانفعاله بما يقول عليه الصلاة والسلام.

وقال ﷺ: «أنا آخِذٌ بحجزكم عن النار، أقول: إياكم وجهنمَ والحدود، إياكم وجهنم والحدود، إياكم وجهنم والحدود». فهو ﷺ آخذٌ بحجز أمته يقول: إياكم عن النار، هَلُمَّ عن النار وهم يعصونه ويتقحَّمونها.

وقد ذكَّرنا بها الله عزَّ وجلَّ غايةَ التذكير، وحذَّرنا منها أعظم التحذير.. ألا فلنُشعر القلوب بشيء من أحوالها، ولنُذكِّر النفوسَ بشيء من أهوالها، عسى قسوة من قلوبنا تلين، وغفلة من نفوسنا تُفيق.. فإن سألتَ عن النار، فقد سألتَ عن دار مَهُولة، وعذاب شديد.

إنْ سألتَ عن: حرِّها، وعن قَعْرها، وحميمها، وزقومها، وأصفادها، وأغلالها، وعذابها، وأهوالها، وحال أهلها.. فما ظنُّك بحرِّ نار أُوقِدَ عليها ألفَ عام حتى احمرَّتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألف عام حتى ابيضَّتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألف عام حتى اسودَّتْ، فهي سوداء مظلمة.

ما ظَننا بحرِّ نار، نارُنا التي نُوقدها جزءٌ واحدٌ من سبعين جزءاً من نار الآخرة!

أما بُعْدُ قَعْرِها.. فما ظننا بقعْر نار يُلْقَى الحجرُ العظيمُ من شفيرها، فيهوي فيها سبعين سنة لا يُدْرِكُ قعرها.

أما طعامها وشرابها.. فاستمع إلى قَوْل خالقها والمتوعد بعذابها: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ـ ٤٦].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۝ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ۝ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢ـ ٦٨].

أما شرابها، فاستمع إلى ما يقول ربنا وخالقنا: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

فهذا الطعام: ﴿ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٣].

وهذا الشراب: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧].

يقول النبي ﷺ في بيان حال طعام أهل النار: "لو أن قطرةً من الزَّقوم قُطِرت في الدنيا لأفسدتْ على أهل الأرض معايشهم".

فكيف بمَنْ تكون طعامه؟!.

يُلقى على أهل النار الجوع، فإذا استغاثوا أُغيثوا بشجر الزقوم. فإذا أكلوه غلا في بطونهم كغلي الحميم، فيستسقون فيُسقون بماء حميم، إذا أدناه إلى وجهه شوى وجهه، فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى يخرج من دُبره: ﴿وَسُقُوا مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

أما سلاسلها وأغلالها، فاستمع إلى وصفها:

﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢].

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

أي: أن ناصية رأسه تُجمع إلى قدميه من وراء ظهره.

ينشيء الله لأهل النار سحابةً سوداء مُظلمة، فيُقال لهم: يا أهلَ النار.. أيّ شيء تطلبون؟ فيقولون: الشراب، فيستسقون. فتمطرهم تلك السحابة السوداء أغلالاً تزيد في أغلالهم، وسلاسلَ تزيد في سلاسلهم، وجمراً يتلهب عليهم.

أما عذابُ أهل النار وكل ما مضى من عذابها؟ فما ظنك بعذاب دارٍ، أهون أهلها عذاباً مَن كان له نعلان يغلي منهما دماغه، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً، وإنه لأهونهم.

أما حالُ أهلها فشرُّ حال، وهوانهم أعظم هوان، وعذابهم أشدُّ عذاب؟

ما ظنك بقوم قاموا على أقدامهم خمسين ألف سنة، لم يأكلوا فيها أكلة، ولم يشربوا فيها شربةً حتى انقطعتْ أعناقهم عطشاً واحترقت أكبادهم جوعاً. ثم انصُرف بهم إلى النار، فيُسقَون من عين آنية، قد آذى حرها واشتد نضجها.

فلو رأيتهم وقد أسكنوا داراً ضيقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك قد شُدّت أقدامهم إلى النواصي، واسودّت وجوههم من ظلمة المعاصي، يُسحبون فيها على وجوههم مغلولين. النار من فوقهم، النار من تحتهم، النار عن أيمانهم، النار عن شمائلهم: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١].

فغطاؤهم من نار، وطعامهم من نار، وشرابهم من نار، ولباسهم من نار،

ومهادهم من نار.. فهم بين مُقطّعات النيران، وسرابيل القطران، وضرب المقامع، وجَر السلاسل يتجلجلون في أوديتها، ويتحطمون في دركاتها، ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم كغَلْي القدور، وهم يهتفون بالويل ويدعُون بالثبور:

﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ * وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ * كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ١٩ـ ٢٢].

يتفجر الصديد من أفواههم، وتتقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود عيونهم وأهدابهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ٥٦].

أمانيهم فيها الهلاك، وما لهم من أسرها فكاك، فما حالُ دارِ أماني أهلها إذا تمنوْا فيها الموت؟ ما حال دارِ أماني أهلها إذا تمنوْا فيها أنْ يموتوا؟

كيف بك إذا رأيتهم وقد اسودتْ وجوههم، فهي أشدُّ سواداً من الحمم، وعميتْ أبصارهم، وأبكمتْ ألسنتهم، وقصمتْ ظهورهم، ومُزّقتْ جلودهم، وغُلّتْ أيديهم إلى أعناقهم، وجُمع بين نواصيهم وأقدامهم، يمشون على النار بوجوههم، ويطئون حسك الحديد بأحداقهم، يُنادون من أكنافها، ويصيحون من أقطارها:

(يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالكُ قد حقّ علينا الوعيد، يا مالكُ قد نضجتْ منا الجلود، يا مالكُ قد تفتتْ منا الكبود، يا مالكُ العدم خير من هذا الوجود). فيجيبهم بعد ألف عام بأشد وأقسى خطاب وأغلظ جواب: ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

فينادون ربهم وقد اشتدّ بكاؤهم، وعَلا صياحهم، وارتفع صراخهم:

﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧]، فلا يجيبهم الجبار جلّ جلاله إلا بعد سنين، فيجيبهم بتوبيخ أشدّ من العذاب: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

فعند ذلك أطبقتْ عليهم النار وغُلّقتْ، فيئس القومُ بعد تلك الكلمة أيما إياس، فتزداد حسراتهم وتنقطع أصواتهم، فلا يُسمع لهم إلا الأنين والزفير والشهيق والبكاء.. يبكون على تضييع أوقات الشباب، ويتأسفون أسفاً أعظم من المصاب، ولكن هيهات هيهات، ذهب العمل وجاء العقاب.

لَقَدْ خَابَ مِنْ أَوْلَادِ آدَمَ مَنْ مَشَى ... إِلَى النَّارِ مَغْلُولَ الْقِيَادِ أَزْرَقَا

يُسَاقُ إِلَى نَارِ الجَحِيمِ مُسَرْبَلاً ... سَرَابِيلَ قَطِرَانٍ لِبَاساً مُحْرِقَا
إِذَا شَرِبُوا مِنْهَا الصَّدِيدَ رَأَيْتَهُمْ ... يَذُوبُونَ مِنْ حَرِّ الصَّدِيدِ تَمَزُّقَا

ويزيدهم عذابهم شدة، وحسرتهم حسرة تُذكّرهم ماذا فاتهم بدخول النار. لقد فاتهم دخول الجنان، ورؤية وجه الرحمن، ورضوان رب الأرض والسماء جلّ جلاله، ويزيد حسرتهم حسرة، وألمهم ألماً أن هذا العذاب الأليم والهوان المقيم ثمن اشتروه للذة فانية، وشهوة ذاهبة.

لقد باعوا جنةً عَرْضُها السماواتُ والأرضُ بثمن بَخْس دراهم معدودة، بشهوات تمتعوا بها في الدنيا ثم ذهبتْ وذهبوا، فكأنها وكأنهم ما كانوا وما كانت.

ثم لَقُوا عذاباً طويلاً، وهواناً مُقيماً، فعياذاً باللّه من نارِ هذه حالها. وعياذاً باللّه من عمل هذه عاقبته.

اللّهم إنه لا طاقةَ لنا بعقابك، ولا صبرَ لنا على عذابك.. اللّهم فآجِرْنا واعتقنا من نارك.

﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦].

الجحيمُ . . رؤيةٌ من الداخل

يقول أحدُ العارفين: «لا تنظر إلى صِغَر الذنب، لكن انظر مَنْ عصيتَ»!!.

وتجد مصداق ذلك فيما يتصف اللّهُ به من صفات كماله وإنعامه وتفضُّله على عباده، وأن حَقَّه ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده أن يتقوه حقَّ تقاته، وأنْ يطيعوه ولا يعصوه، وأنْ يشكروه ولا يكفروه، وأنْ يذكروه ولا ينسوه، ومَنِ الذي يستطيع أن يقومَ بذلك على وجهه الكامل؟

واللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يحذر عباده من عقوبته، وهو يؤاخذ بالذنب صغيره وكبيره. . فحقُّ اللّه على عباده أعظمُ وأكبرُ من كلّ ما يأمرهم به، والجميع تحت رحمته وطوْع أمره، وهو سبحانه يقول: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

لماذا كانت المعصية شيئاً عظيماً؟ المعصية شيء عظيم؛ لأنها مخالفة لأمر الرب الإله الذي لا إله إلا هو، خالق السماوات والأرض، وخالق كل شيء، وهو ربُّ كل شيء ومليكه، الذي خضع له كل شيء، وذلّ له كلُّ شيء.

فهو سبحانه القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير الذي لا يغيب عنه من شؤون عباده صغيرٌ ولا كبير. . وهو القائمُ على كل نفس بما كسبت، والذي لا يعزب عنه مثقالُ ذرة في السماوات ولا في الأرض.

هو سبحانه الذي تخافه الملائكةُ العظامُ الكرامُ، وتكاد السماواتُ أنْ يتفطَّرْنَ من فوقهن فَرَقاً وخوفاً منه، والذي يمسك السماوات والأرض أنْ تزولا.

هو سبحانه الذي لا يحيط أحدٌ من خَلْقه علماً به، يحيط علماً بكل مخلوقاته، ولا يغيب عنه سبحانه خطراتُ قلوبهم، ولا نزعاتُ نفوسهم، ولا وساوس صدورهم، الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، والذي لا يقبل من أحد من مخلوقاته إلا الإذعان له، والاستسلام لأمره.

هو الذي يُكرم مَن شاء من خَلْقه وعباده، فلا يكون لإكرامه مُنْتهى، ولا لعطائه حدٌّ، ويهين مَنْ شاء من خَلْقه، فلا تكون لإهانته مثيلٌ، ويُعذِّب مَن أراد من

عبيده فلا يكونُ لعذابه نهاية، ولا لعذابه شبيه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

اللّه سبحانه هو الربُّ الإله الذي جعل الخَلْق كله له، والأمر كله له، فلا يخلق إلا هو، ولا يستطيع غيره أنْ يخلق ذَرّة، ولا بَرّة، ولا ذباباً.

هو سبحانه الذي يملك نَفْع خَلْقه وضرّهم، فلا يملك غيره لأحد من خَلْقه لنفسه نفعاً ولا ضراً، إلا ما شاء هو.. وهو الربُّ الإله خالق السماوات والأرض، الذي لا يكربه ولا يتعبه خَلْق السماوات والأرض، ولا حِفْظهما في أماكنها ومداراتها.

فمَنْ ذا يستطيع أنْ يضعَ الشمسَ في مكانها غيره؟ وأنْ يضعَ القمر في مكانه غيره؟ والنجوم في مساراتها، والمجرّات في مجاريها؟ ومَن الذي أتقن كل ذلك.

قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

فهو مالك الملْك كله، ومُدبّر الكون كله، لم يساعده أحدٌ، ولم يعاونه أحدٌ في خَلْق الكون، ولا حفظه، بل هو الخالق لكلّ ما في الكون والحافظ له، والمقيم له، وهو الذي يُفْرط عِقْد هذا الكون وقت ما يشاء، ويُبَدّل السماوات والأرض وقت ما يريد.

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ١ ـ ٥].

وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ١٤].

وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١ ـ ٥].

هذا الرب الإله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي وصف نفسه في القرآن فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال جلّ وعلا: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال جلّ وعلا: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٤ـ ٩].

وقال جلّ وعلا: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٢ـ ٣٤].

وهكذا.. فإن معصيةَ هذا الربّ العظيم الكبير المتعالي أمرٌ عظيم، ومخالفته فيما أوجب على عباده ذنبٌ كبير جداً.

ومما يجعل مخالفةَ أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمراً عظيماً، وإثماً كبيراً هو أن حقَّ الله على عباده أكبرُ مما يأمرهم به، فإن اللّهَ هو خالقُ الخَلْق، ومُدبّر شؤونهم، والمتفضّل عليهم بنعمة الوجود أولاً، ثم ما من نعمة إلا وهي منه ـ سبحانه وتعالى ـ فهو وحده الرزّاق لكل عباده، وهو ربهم الذي يكلؤهم ويرعاهم، ويُربيهم برحمته، وليس لهم ربٌّ سواه، ولا إلهَ لهم غيره.

ولو أمر عباده بما أمر، فإن هذا حقُّه على عباده، فإنه خالقهم وربُّهم، ومُنشئهم من العدم، ومع ذلك فلا يكلف ـ سبحانه وتعالى ـ نفساً إلا وُسْعَها، ولا يأمر عباده إلا بما ينفعهم، وإذا أمرهم فإنه يأمرهم وهو غنيٌّ عنهم، غيرُ فقير لعبادتهم.

وعبادة العباد له هي من جملة الفضل الذي يتفضّل به عليهم؛ لأنها سببٌ لزكاتهم وطهارتهم، وسببٌ لنيْل مرضاته ورحمته وجائزته، وهكذا تصبح معصيةُ العاصي أمراً عظيماً وإثماً كبيراً؛ لأنه يخالفُ الربَّ الإله الذي أحسن وأكرم، وخلق ورزق، وتحنّن على عبده.

ولا شك أن وراء كل أمر إلهيٍّ حكمة عليا قد يخبرنا اللّهُ بها، وقد يهدينا إلى معرفتها، وقد يُخفيها عنّا، وفي كل ذلك يجب على المكلّف أنْ يسمع ويُطيع، وأما

إنْ علّق طاعته لله على فَهْمه ومعقوله ومعرفته لحكمة الآمر، فإنه لا يكون عابداً لله على الحقيقة، ولو ردَّ الأمر الإلهي ظاناً أنه مخالفٌ للحكمة والعقل لَكان كافراً، وكان كفره ككفر إبليس الذي لم تكُنْ جريمته إلا ردّ الأمر الإلهي كفراً وكِبْراً وعناداً.

إذا عرفَ العبدُ ربَّه على الحقيقة، وأنه هو خالقه ورازقه، ومُتولّي شؤونه، ومَنْ بيده نفعه وضرّه، ومَنْ يعلم علانيته وسِرّه، وحياته ومماته، وأن العبد لا يستغني عنه طرفةَ عَيْن، علم أن حقَّ الله على عباده أنْ يُطيعوه فلا يعصوه، وأنْ يشكروه ولا يكفروه، وأنْ يذكروه ولا ينسُوه، وأنْ يتقوه حقَّ تُقاتِه.

وكل تقصير في هذه الحقوق تقصيرٌ ومعصية.. فالغفلة ولو للحظة واحدة عن ذكْر الله إثم، وعدم القيام بشكر نعمة واحدة من نِعَم الله التي لا تُحصى إثمٌ، ومعصية أمر الله في الكبير والصغير إثمٌ.

وقد أمرَ اللهُ عبادَهُ أنْ يتقوه حَقَّ تُقاتِه، أي: كما ينبغي له، إذ هو ـ سبحانه وتعالى ـ أهْلٌ لأنْ يُتّقى، فهو الربُّ الإله القائمُ على كلِّ نفس بما كسبتْ.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقد علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن عباده لا يُطيقون أنْ يقوموا بحقّه، وأنْ يتقوه، كما ينبغي له سبحانه وتعالى، ففرض عليهم من ذلك ما يستطيعون، فقال جلّ وعلا: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فمَنْ غفل عن ذكر الله الواجب المستطاع فهو آثمٌ، كما قال ﷺ: «ما من قوم جلسوا مجلساً، ثم قاموا منه ولم يذكروا الله فيه إلا كانَ هذا المجلسُ عليهم تِرَةً يوم القيامة».

أي: حسرة وندامة.. ولا حسرة إلا في تَرْك واجب.

ومَنْ قصَّر في شُكْر نعمة عرفها فهو آثم، ولو كانت في شَرْبة ماء شربها، ولم يحمد الله عليها. قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

وقد قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر لما خرجوا من بيوتهم بسبب الجوع، ثم أضافهم أنصاريٌّ، فقدم لهم عِذْقاً من تمر ورُطَب، فأكلوا، وقدَّم لهم ماءً بارداً فشربوا.. قال رسول الله ﷺ: «إن هذا من النعيم، ولتسألُنَّ عنه يوم القيامة».

ومَنْ عصى اللّه في صغير أو كبير فهو تحت الحساب والمؤاخذة، إلا أنْ يغفرَ اللّهُ ذنبه.

إذا عُلِم هذا عُلم معنى الذنب الذي يُنسب إلى الأنبياء والرسل، فإنه ليس كبيرةً بحال، وليس تعمُّداً لمعصية اللّه، وإنما قد يكون اختياراً لخلاف الأَوْلَى، أو انقطاعاً لحظةً عن الذِّكْر الدائم، أو القعود لحظةً عن الشكر الدائم.

قال رسول اللّه ﷺ: «إنه لَيُغَانُّ على قلبي، وإني أتوبُ إلى اللّه في اليوم أكثر من مائة مرة».

وكان رسول اللّه ﷺ يصلي من الليل حتى تتفطَّر قدماه، فإذا سُئِلَ في ذلك قال: «أفلا أكونُ عبداً شَكُوراً».

فمَنْ عرف حقَّ اللّه على عباده، وعرف أن حقه يعظُم كلما عَظُمتْ نعمته على العبد، وعلم أن حقَّ اللّه سبحانه على عبده أنْ يذكره فلا ينساه، ويشكره فلا يكفره، وأنْ يُطيعه فلا يعصاه، وأنْ يخافه ويتقيه كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه.. علم العبد عند ذلك ماذا تعني المعصية والذنب؟.